

مؤسسة الشيخ عمي سعيد
ثقافة . تربية . تراث

الأيام الدراسية العلمية:

من الشيخ عمي سعيد بن علي الجري [ت 927 هـ / 1521 م]
إلى الشيخ جمو بن موسى عمي سعيد [ت 1425 هـ / 2005 م]

المحاضرة الأولى:

أوضاع وادي مزاب في القرن التاسع الهجري

إعداد

د. إبراهيم بن بكير بحاز¹

1- الدكتور: إبراهيم بن بكير بحاز، ليسانس في التاريخ من جامعة قسنطينة، ماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة بغداد بالعراق، دكتوراه دولة من جامعة قسنطينة، رئيس قسم التاريخ بجامعة قسنطينة، مشرف على إعداد معجم المصطلحات، وله نشاطات عدة.

باسم الرحمن الرحيم

من المعروف المشهور أن بني مصاب الزناتيين البربر تقلبوا في شمال المغرب الأوسط طولا وعرضا²، حتى استقر بهم المقام في منطقة هذا الوادي، وبين هذه الجبال، في فترة لا نعرف بالضبط متى كانت، إلا أننا نعلم علم اليقين أن ذلك كان قبل القرن الثالث الهجري / التاسع للميلاد³، وربما كان مع دخولهم الإسلام واعتناقهم للمذهب المعتزلي الذي أوحى لهم بالاعتزال مذهباً، والاعتزال جغرافياً في هذا الوادي الذي كان غير ذي زرع، وفي منطقة تعتبر شبه نائية، متطرفة جنوباً، بعيداً عن الحواضر الكبرى في شمال المغرب الإسلامي بعامه، والمغرب الأوسط بخاصة.

إن هذا الوادي الذي أخذ اسمهم، فأصبح يعرف بوادي مزاب، أو قصور مزاب، كما يقول ابن خلدون في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر للميلاد (ت 808هـ/1405م)، ويذكر أن: "... قصور مصاب على خمسة مراحل من جبل تيطر... على ثلاثة مراحل من قصور بني ريغة في المغرب، وهذا الاسم (أي قصور مصاب) للذين اختطوها ونزلوها من شعوب بني بادين... وسكانها لهذا العهد شعوب زناتة، وإن كانت شهرتها مصاب"⁴.

هذا الوادي الذي تحرص المصادر الإباضية⁵ المغربية على تسميته ببادية بني مصعب⁶ أو براريها، نقلاً عن بعضها البعض، ابتداءً من أبي زكرياء في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي (ت 471هـ) إلى أبي العباس أحمد الدرجيني في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي (ت 670هـ)، لتؤكد حقيقة مهمة في بحثنا هذا، وهي أن المنطقة كانت في تلك الفترة بادية، قد تعلوها بعض الحشائش الصحراوية في فصل

1- عن أصل المزايين في البربر الزناتيين، وأصل تسميتهم بمزاب، انظر ابن خلدون: العبر، ج7، ص125-129.

2- كان المزايون يقصدون تيهرت، وبحارون الرستميين هناك أو يناظرونهم، وحاول هؤلاء وأولئك إقناع بعضهم بعضاً بالمذهب الذي ينتمون إليه، ولم يفلح لا هؤلاء ولا أولئك... وكان ذلك في القرن 3هـ/9م، أيام الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (171-208هـ) ومن جاء بعده. انظر اطفيش: الرسالة الشافية، ص38، مجاز: المزايون المعتزلة، مقال بمجلة الحياة، ع01، ص129، وعن مناظرة الإباضية الرستميين للمعتزلة الواسلية انظر ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ط الجزائر، ص82.

3- ابن خلدون: العبر، ج7، ص123.

1- أبو زكرياء: السير، ص175، الدرجيني: الطبقات، ج1، ص183.

2- سبق لي في بحث: المزايون المعتزلة، بمجلة الحياة، ع01، ص124، هامش (2) أن ذكرت أن تسمية "بنو مصعب" هي الاسم الذي اختارته المصادر الإباضية دون غيرها من المصادر المعاصرة لها أو اللاحقة، وذكرت أن مصعباً هذا أو بني مصعب لا يعدو كونه تعريباً لاسم بربري هو مصاب لا غير، وهذا أمر لا يليق إطلاقاً، والدليل على ذلك أن بني مصاب أو مزاب ظلوا إلى اليوم يعرفون بمزاب وليس بمصعب.

الربيع، الأمر الذي جعل أبا عبد الله محمد بن بكر النفوسي (مؤسس نظام الحلقة) يقصدها في فصل الربيع، حيث كان "يشتهي في أريغ، ويرجع -على حد قول أبي زكرياء- في البراري عند بني مصعب"⁷. فهذه البادية هي التي ستتطور لتصبح قصورا في عهد ابن خلدون، في القرن الثامن الهجري -كما أسلفنا-، وهذا ما يتناسب فعلا مع قيام قرى وادي مزاب الواحدة بعد الأخرى، على ضفاف الوادي، أو على المرتفعات الجميلة المطلة على الوادي، ابتداءً من مصبه ونهاياته في الصحراء باتجاه وارجلان، وصعداً نحو الشمال في المنطقة المعروفة اليوم بالوادي الأبيض، شمال مدينة تغردايت (غرداية)، فجاءت القرى حسب تسلسل بنائها كالتالي:

تاجنيت (العطف): 402هـ/1011م أسسها خليفة بن أبغور المعتزلي.

آت بنور (بنورة): 457هـ/1064م.

تغردايت (غرداية): 477هـ/1084م.

آت مليشت (مليكة): 518هـ/1124م.

آت يزجن (بني يزجن): 720هـ/1321م.

وقيل إن آت مليشت (مليكة) أسست عام 756هـ/1355م⁸، وفي القرن الحادي عشر قامت مدينتا القرارة عام 1040هـ/1631م، وبريان عام 1060هـ/1650م.

لقد كانت بادية مزاب من الاتساع بحيث لا تشمل منطقة الوادي فحسب، بل تمتد إلى الشمال، والشمال الشرقي، وكذلك الجنوب الشرقي، أي مناطق القرارة وبريان وزلفانة ومتليلي، فهذا الإقليم كله يشكل بادية متصلة ببعضها البعض، قبل بناء القرى والمدن المذكورة، وبعد بنائها، فالمزاييون وغيرهم من بني عمومتهم الزناتيين كانوا يرتادون الإقليم، وينتقلون من مكان فيه إلى آخر بحثا عن الماء والكأ على عادة البدو، قبل الاستقرار النهائي للمزاييين⁹.

ولما تم استقرارهم في مدنهم وقراهم ابتداءً من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر للميلاد، إلى الثامن الهجري / الرابع عشر للميلاد، عُرفت المنطقة بقصور مصاب، نسبت إلى مصاب دون غيرهم من زناتة، واشتهرت بتلك النسبة كما مر في نص ابن خلدون، ربما لأسباب عديدة أهمها:

3- أبو زكرياء: أخبار الأئمة الرستميين، ص175.

1- عن قرى ومدن مزاب وتأسيسها انظر: طلاي: مزاب بلد كفاح، الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب، ص17-21، بكير أعوش: مزاب يتكلم، المطبعة العربية، غرداية، 1993، ص46-49.

2- يذكر البكري أن الإمام الرّسّمي كان (إمام الإباضية والصفوية والواصلية وكان يسلم عليه بالخلافة)، ويذكر أن مجمع الواصلية كان قريبا من تاهرت وكان عددهم نحو 30 ألفا في بيوت كيبوت الأعراب يحملوها. انظر: البكري ص67.

-وفرة عدد بني مصاب في الإقليم، أي الوادي والبادية، مقارنة ببني زناتة الآخرين.

- نشاط بني مصاب وحيويتهم مقارنة بغيرهم من بني زناتة الآخرين.

- أسبقية بني مصاب إلى الإقليم، بحيث أقاموا فيه قبل أن تلحق بهم فروع من زناتة الآخرين، ولعل اعتناق بني مصعب للمذهب المعتزلي في بداية القرن الثاني الهجري¹⁰ / التاسع للميلاد هو الذي دفع بهؤلاء إلى الاستقرار في الإقليم، في حين اضطرت بعض فروع زناتة للالتحاق ببني عمومهم بني مصاب في هذا الإقليم، عندما زحزحهم أعراب بني هلال وزغبة ورياح عن مواقعهم في الزاب وتيهرت إلى ملوية غرباً، بعد القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد.

إن وادي مصاب إذاً قد تشكل بقراه ومدنه ابتداءً من القرن الثاني الهجري / التاسع للميلاد، وعرف تطورا عمرانيا ملفتاً في القرون من الرابع إلى الثامن الهجري / العاشر إلى الرابع عشر للميلاد، فتزامن هذا التطور مع اعتناق بني مصاب للمذهب الإباضي الذي وصلهم على يد أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي¹¹ في حدود عام 422هـ / 1029م، ويبدو لي أن بناء المدن والقرى في تلك السنوات والقرون المتتالية جاء استجابة لتوافد الإباضية من وادي ريغ، وسوف، ونفطة، وتوزر، وجبل دمر، تلك المناطق التي كانت أهلة بالإباضية في تلك القرون، والتي انقرضت منها نهائياً بسبب زحف الأعراب، أو توافدهم من جزيرة جربة، ومن جبل نفوسة، المنطقتين اللتين لا تزالان تحتفظان ببقايا الإباضية إلى اليوم.

إن الإباضية بوادي مزاب لم تنتشر بسرعة، على ما يبدو، وهو ما يفهم من النصوص الإباضية وغير الإباضية، وهو ما يتماشى مع الواقع الإنساني والتاريخي في كل تغيير من هذا القبيل.

فأبو زكرياء يذكر أن أبا عبد الله لما احتك بواصلية (أي معتزلة) بني مصاب "ردَّ بعضَهم إلى الوهبية"¹²، إذاً ليسوا كلهم، ولم يزد قولاً آخر بعد ذلك عن بني مصاب، وكذلك فعل الدرجيني والشماسي، أي إلى مشارف القرن العاشر الهجري / السادس عشر للميلاد، لم تبرز إباضية بني مصاب بعد البروز القوي الذي يمكن أن يسجل لهم فيه محاسن أو مناقب لمجموعتهم بعامة، أو لبعضهم بخاصة.

من هنا يبدو لي أن ابن خلدون لما ذكر أصل بني مصاب وقصور بني مصاب واهتم بتحديد الموقع شرقاً وغرباً وقبله بدقة متناهية، وأهمل مع كل ذلك ذكر أي شيء عن مذهب المزابيين الإباضي، إنما سببه هو أن

1- يحتاج الإقليم (وادي مزاب) وجل ولاية غرداية اليوم إلى مسح أثري علمي أكاديمي، خاصة المناطق الحضرية اليوم كالعطف، وأغرم أن باباسعد، والضاية، والقرارة، وبريان.

2- عن أبي عبد الله محمد بن بكر الذي سبق ذكره كذلك في الصفحة الثانية انظر معجم أعلام الإباضية، الترجمة رقم 803.

3- أبو زكرياء: السيرة، ص 175.

هذا المذهب لم يشتهر بعدُ في المنطقة، نعم اعتنقه المزابيون منذ الربع الأول من القرن الخامس الهجري، وظل انتشاره يسري بطيئاً، ولكن بعمق في أوساط بني مصاب، لمدة ربما تزيد عن خمسة قرون، يتفقهون في علومه ويستقدمون العلماء في سبيل ذلك.

ومما يؤيد هذا المنحى سكوت كل المصادر الإباضية وغير الإباضية عن ذكر شيء عن إباضية بني مصاب، خلال القرون الخمسة التي تلت أول تقبل للمذهب الإباضي على يد أبي عبد الله الفرسطائي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ أن مشايخ وادي مزاب وقصر غرداية بالذات من لدن الشيخ بابا السعد¹³ أول من اعتنق الإباضية في القرن الخامس الهجري، وهو من زناتة مصاب، يأتون من خارج مزاب كجبل نفوسة وجربة، وبعض المناطق شمال المغرب الأوسط، مما يدل على بقاء الإباضية منتشرة في بعض تلك المناطق إلى وقت طويل، بعد سقوط الرستميين عام 296هـ / 909م.

لقد وقفت جربة وجبل نفوسة بالذات إلى جانب المزابيين في المرحلة الانتقالية الطويلة، من الاعتزال الواسلي إلى الإباضية، تدعمهم بالمشايخ، وتفقههم في دينهم، ولعل أبرز أولئك المشايخ على الإطلاق في دوره الاجتماعي والديني والثقافي والاقتصادي، هو المحتفى به اليوم الشيخ عمي سعيد بن علي الأجيبي الخيري الجربي¹⁴ الذي قدم منطقة مزاب عام 854هـ / 1450م¹⁵، أو بعد ذلك بثلاثين عاماً، أي حوالي 884هـ / 1480م، بحسب ما ثبت عند الباحث الأستاذ بشير الحاج موسى، بعد التقصي والتدقيق في التواريخ المتعلقة بهذا الشيخ العظيم ودوره في وادي مزاب.

عندما نقول إن المشايخ التسعة وعاشرهم الشيخ عمي سعيد، كلهم من خارج مزاب، باستثناء أولهم الشيخ بابا السعد الداوي، ألا يدعوننا هذا إلى التفكير جدياً في تاريخ مزاب خلال الفترة الممتدة ما بين 422هـ و884هـ، أي حوالي أربعة قرون ونصف قرن؟ من هنا يمكن أن نقول:

إن وادي مزاب في هذه الفترة، على ما يبدو لي، لم يعرف بعدُ كل زخمه الحضاري، فقد رأينا أنه كان بادية لمصاب وغيرهم من زناتة، وتذكر لنا الروايات الشفوية التي دُوِّنت مؤخراً أن الشيخ بابا والجمة (ت: حوالي 567هـ / 1171م) الذي كان قد ضرب الخيام أول مرة بوادي مزاب واضعاً بذلك النواة الأولى لقصر غرداية،

1- عن الشيخ بابا السعد انظر حمو فخار: إبراهيم بن بابا بوعروة (الشيخ بابا ثامر) حياته وآثاره، إعداد مصطفى باجو، جمعية التراث، غرداية، 2004م، ص 94-95، وانظر معجم أعلام الإباضية، رقم الترجمة 134.

1- عن ترجمة الشيخ عمي سعيد انظر معجم أعلام الإباضية، الترجمة رقم 402، وانظر خاصة الأستاذ بشير الحاج موسى: الشيخ سعيد بن علي بن يحيى الخيري الجربي الشهير بعمي سعيد الغرداوي، مطبوعة مصففة على الحاسوب غير منشورة، في 40 صفحة.

2- معجم أعلام الإباضية يذكر قدوم الشيخ عمي سعيد إلى وادي مزاب عام 854هـ / 1450م، في حين يؤكد الباحث بشير الحاج موسى أن ذلك غير صحيح، والثابت عنده بعد العودة إلى عدة قرائن وأدلة أن ذلك القدوم تم بعد سنة 884هـ وقبل 889هـ، انظر ص 8 من المطبوعة.

هو الذي انطلقت على يديه الحضارة العمرانية بالمنطقة، فمن رعي المواشي والتنقل بها من مكان إلى مكان، إلى الاستقرار وحفر الآبار، وغرسة الأجنة والبساتين، ولذلك لُقّب بـ: "بابا والجمة" باللهجة المزابية، وتعريبها "أبو الأجنة"، لأنه هو صاحب الأجنة العليا بواحة غرداية¹⁶، أحيى الزراعة بالاهتمام بها، وكأنه أول من نقل المزابيين من البداوة إلى الاستقرار، ووجههم إلى الزراعة التي تحتاج فعلا إلى الاستقرار، علما بأنه ثاني شيخ إباضي في المنطقة، مما يوحي أن الإباضية هي التي علمت المزابيين التحضر.

إن محيي هؤلاء العلماء إلى الوادي وتولي إمامة المشيخة فيه، يدل على أن بني مصاب لا يزالون بحاجة إلى العلماء من خارج إقليمهم ليفقهوهم في الدين، وتم ذلك خلال أربعة قرون.

كثيرا ما ذكرت المصادر الشفوية التي دُوّنت مؤخرًا أن المزابيين احتاجوا إلى العلماء لفض النزاعات والفتن الداخلية، وهذا يعطي المبرر لاستقدام العالم من خارج الوادي لتولي المشيخة، حتى يكون موضع رضا الجميع وثقتهم.

لم يُسَل الوادي لعاب حكام المغرب الإسلامي، في هذه الفترة للسطو عليه، أو إجلائه للتبعية، فلم تذكر المصادر التي بين أيدينا أن دولة الفاطميين وضعت يدها على المنطقة أو وصلتها جيوشها، ولا الدول التي أعقبتها كالحماديين والزيريين والمرابطين والموحدين والحفصيين والزيانيين، وإن وجدت أحد الباحثين المعاصرين يذكر أن الأسرة الزيانية حكام تلمسان، وهم بنو عمومة بني مصاب كلاهما زناتي، يذكر أن دولة بني زيان وصلت في بعض فترات قوتها إلى منطقة غرداية ووارجلان جنوبا¹⁷، ففي كل هذه الفترة، أي من سقوط دولة الرستميين علم 296هـ/909م إلى سقوط الزيانيين عام 962هـ/1554م، عاش وادي مزاب مستقلاً عن أية هيمنة عسكرية أو سياسية مباشرة تابعة لدولة في المغرب الإسلامي عموماً وفي المغرب الأوسط والجزائر خصوصاً.

ومما يرويه يحيى بن خلدون شقيق عبد الرحمن بن خلدون في كتابه "بغية الرواد" أن عدداً من أسلاف بني عبد الواد الزيانيين استوطنوا عدداً من المدن والمناطق، ويوجد منهم بقايا في جبل مصاب، في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري¹⁸.

ربما كان مزاب ملاذاً لبعض ملوك بني زيان عند سقوطهم عن عروشهم، كما ضم إليه، كما يؤكد النص السابق، بعض أسلاف هذه الأسرة الحاكمة في مغربنا الأوسط.

1- معجم أعلام الإباضية: العلم رقم 058، ص 72-72. وانظر حمو فخار: إبراهيم بن بابا بوعروة، ص 96.

2- عبد العزيز فيلاي (الدكتور): تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ج 1، ص 44-45.

1- يحيى بن خلدون: بغية المراد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1980، ج 1، ص 96.

وربما أقصى ما يمكن أن يفعله حاكم هو فرض ضريبة لمدة قصيرة أو لمرة واحدة كما فعل أحد سلاطين الحفصيين في تونس، عندما هاجم توقرت، عام 853هـ/1449م، ثم عام 869هـ/1465م، ودخلها وفرض على أهلها غرامة مالية، ثم قدم عاملاً له على ورقلة، وأخذ منها ومن مزاب مالا وفيرا، فعاد أدراجه إلى تونس عام 870هـ/1465م¹⁹، دون أن يدخل المنطقة.

فهذه الغرامة المالية قد يدفعها المزابيون لهذا أو ذاك، من السلاطين المتنفذين دفعاً لما هو أعظم وهو الوصول إلى مزاب، وهذه الغرامة كما هو ظاهرٌ سبقت مقدم عمي سعيد سنوات معدودات.

إذن هذا عن الجانب السياسي لمنطقة وادي مزاب، من سقوط الرستميين حتى مشارف القرن العاشر الهجري، مروراً بالقرن التاسع الهجري، قرن المحتفى به الشيخ: عمي سعيد الجربي رحمه الله.

وكما أسلفْتُ، فيما يتعلق بالجانب الثقافي والديني، فالذي أراه أنّ وادي مزاب، عاش فترة الانتقال من الاعتزال إلى الإباضية وكانت طويلة جداً نوعاً ما، فلا تتصور أنّ المزابيين كلّهم اعتنقوا الإباضية مباشرة بعد احتكاك أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي بأحد أعيانهم أو بعضهم ودعوتهم إلى الإباضية، فالاعتناق ليس بالأمر السهل خاصّة في الانتقال من مذهب إلى آخر، ولذلك احتاج وادي مزاب إلى مشايخ من خارج الوادي في فترة طويلة، ويتألق دور الشيخ عمي سعيد الجربي الديني والثقافي على أيّ دور من أدوار المشايخ الذين سبقوه في الإمامة بوادي مزاب عموماً وبغرداية خصوصاً، فهو الذي أحيى العلم بالوادي، وإلى اليوم: الوادي يستلهم من فكره ويرى أنّ تلك المحطة من أهمّ محطات العلم في وادي مزاب بعد محطة أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي، وما ملتقانا هذا إلا استذكار واستلهم لذلك الوقع الذي تركه في نفوسنا منذ خمسة قرون وطيلة خمسة قرون وعلى امتداد خمسة قرون.

أما الجانب الاقتصادي بوادي مزاب في القرن الثامن الهجري، فلقد رأينا أنّ الشيخ بابا والجمة في القرن السادس الهجري/12م عمل على تحويل المنطقة وأهلها من بادية وبداة أو بدو إلى واد بزروع وواحات ورجال ومزارعين، تراكمت عندهم الخبرة بعد ذلك بقرون، بفضل مساعدة إباضية ريغ وجربة ونفوسة، هؤلاء الذين حولوا المنطقة إلى آلاف شجرات النخيل وغيرها من الأشجار المثمرة، كما تعلّموا منهم حفر الآبار فحذق المزابي كلّ ذلك، وتفنّن في الزراعة والرعي، ومع كلّ ذلك تروي المصادر أنّ الشيخ عمي سعيد لما قدم وادي مزاب لإحياء العلم، جلب معه عدداً من «ذوي الصناعات لعمارة المدينة وانتعاشها علمياً واقتصادياً وعمرانياً، كصناعة الفخّار والجبس والجير وصناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد»²⁰.

2- مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القدم والحديث، ج2، ص404، وانظر الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب، ص84-85.

1- فخار: إبراهيم بن بابا بوعروة، ص101.

فعلا ومنذ ذلك الوقت تقريبا، عرف المزابيون السفر إلى التل للاشتغال في بعض المهن ومن ثمة ممارسة التجارة التي أصبحت إحدى أهم سمات المزابي، بها يُعرف وبه تُعرف هنا في الجزائر.

خلاصة القول: إنّ المصادر الإباضية وغير الإباضية لم تكتب شيئا عن المزابيين منذ أن سجّلت محطة قدوم الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر إلى المنطقة ثمّ قدوم الشيخ عمي سعيد لإحياء العلم، وحتّى المزابيون أنفسهم لم يكتبوا شيئا عن تاريخهم طيلة خمسة قرون أي إلى مشارف القرن العاشر الهجري.

إنّ وادي مزاب، منذ أن اعتنق بعض أهله الإباضية في القرن 5هـ / 11م، ظلّ على ما يبدو لي يتوغّل في الإباضية شيئا فشيئا، لم يبرز سياسيا ولا ثقافيا ولا اقتصاديا، وبدا لي كذلك أنّ عملية اكتمال إباضيتهم كانت مع الشيخ عمي سعيد الجربي في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد، ففترة إمامته هي فترة انطلاق مزاب حضاريا بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى.

فمنذ قدوم الشيخ عمي سعيد إلى مزاب، انطلق أهل هذا الوادي دينيا وعلميا واقتصاديا، وبدأوا يبرزون ويُلفتون النظر إليهم، وهو ما هم عليه إلى اليوم.

إنّ هذا الوادي لم يخضع لسلطة سياسيّة مباشرة إطلاقا منذ القدم وحتّى القرن العاشر الهجري وربّما ما بعد ذلك بقرون إلى عهد العثمانيين بالجزائر.